عرض كتاب *

Stanley H . King , Five Lives at Harvard : Personality Chang During College , Harvard Univ . Press . 1973

خمسة وجوه من هارفارد
تغير الشخصية خلال السنوات الدراسة الجامعية

لعله مما يغرى بقراءة الدراسة التى نعرض لها ما هو معروف عن جامعة هارفارد كواحدة من جامعات الدرجة الأولى فى العالم ، و ذلك لعديد من الاعتبارات فهى شريك اساسى فى الحياة العملية بكافة مجالاتها فى امريكا ، و من ثم فى العالم كله بحكم ما لأمريكا من وزن ، و منها خرجت الدراسات المتميزة التى يعرفها المتخصصون فى الفروع العلمية المختلفة ، و يندر ان تجد استاذا جامعيا امريكيا متميزا فى فرع علمى ما إلا و قد عمل بها لفترة من الفترات ، و يفخر خريجوها بأنهم خريجوا هارفارد لأن شهادتها تفتح لهم، ابواب العمل ، و تعطيهم شعورا بالاعتزاز باعتبارهم من الصفوة الثقافية نظرا لانهم تلقوا دراسة على مستوى رفيع ، و قبل ذلك لانهم لم يلتحقوا بها إلا بعد أن خضعوا لعملية انتقاء عسيرة فى شروطها . و لا يقتصر الأمر على التفوق الاكاديمى للجامعة ، بل هى حريصة على الابقاء على تقليد طويل فى التفوق الرياضى ، إضافة إلى مجالات الابداع الفنى و الأدبى عملا بفكرة الشخصية المتكاملة . و هذا التفوق فى هذا

المجال أو ذاك ينتشر باعتباره قيمة بين الطلاب و أعضاء هيئة التدريس ، ولتكلف القيمة قوتها الدافعة إلى أن يكون بعض خريجيها من الشخصيات البارزة فى المراكز القيادية المتنوعة ، حتى درجة رئاسة الجمهورية .

تعن تلك الهالة التى تحيط بهارفارد أو غيرها من الكليات أو الجامعات الأولى فى

---

* أ . د عبد السميع سيد أحمد – أستاذ بكلية التربية - جامعة عين شمس

العالم مثل يل أو طوكيو أو كمبردج تظل مدعاة للانبهار ، و من ثم الشعور بالرثاء للذات إن ظلت معرفتنا بها معرفة عن بعد ، و كلما اقتربنا كلما تبينا أن التفوق فى مقدورنا و ليس شيئا مستحيلا ، لأن التفوق لا يتوقف على الامكانات التى تتيحها الامكانات المادية ، و انما هو بالحرى تفاعل مع الامكانات ، و فى عملية التفاعل تلك يتعرض الانسان فى كل مكان و زمان لعوامل الصراع و الاحباط ، سواء كانت الامكانات المادية وفيرة أو شحيحة ، و المهم هو التكيف الناجح مع الوسط و التغلب على العوامل المعوقة ، فتكون المحصلة فى النهاية هى التفوق .

هارفارد من داخلها :

يذكر الباحث الذى قام بالدراسة أن هارفارد مكان يسع المتميزين من الطلاب ، و هو ايضا يسع الطلاب الذين يرغبون فى قضاء سنوات دراستهم بأقل جهد ، المهم أن يتخرج و هو يحمل طابع "الجنتلمان" كتقليد طويل مستمر منذ نشأتها . و الأكثر من هذا لفتا للانتباه أنه اذا كان بعض الطلاب يكتسبون خبرات إيجابية اثناء سنوات دراستهم ، فان هناك من يكتسب خبرات سالبة ، بل هناك من يفسد و ينحرف . حقيقة إن زبائن هارفارد من المتفوقين من خريجى المدارس الثانوية رفيعة المستوى ، و اكثريتهم أيضا أبناء اسر ثرية مثقفة ، مما يشكل عاملا من عوامل تميزها ، الا أن هذا العامل ذاته يعتبر من عوامل سوء التكيف لدى بعض الطلاب ، لأن امثال هؤلاء المتفوقين ابناء الاسر الارستقراطية يغلب عليهم طابع التحفظ و التعالى و الحرص على المسافات الاجتماعية فى التعامل ، و هذا ما قد يؤدى بالطلاب اصحاب الشخصيات المنفتحة إلى الشعور بالعزلة و افتقاد الاندماج في مثل ذلك المناخ الاجتماعى . يذكر احدهم أنه آثر الابتعاد عن زملائه لأنه وجدهم يعاملون معه بطريقة رسمية جافة ، و ان حاول اختراق تحفظهم ببعض النكات لهم لم يجد الا الصدود . و يزداد الامر سوءا إن كان الطالب صاحب شخصية تتسم بالخجل ، لأن المناخ لا يسهل عملية الاتصال بالآخرين ، فيذكر طالب أخر أنه حين جاء إلى هارفارد كان يشعر بأنه فى استطاعته أن يسيطر على المقررات الدراسية بيده اليمنى ، بينما يده اليسرى مشغولة بالموسيقى و التأليف للمسرح ، و لهذا كان سعيدا فى عامه الدراسى الأول ، لكنه

أصيب بعد ذلك باحباط جعله يترك الكلية لمدة عام هائما على وجهه فى اوربا ، عاد بعدها مقتنعا بإن خبرة الحياة العملية هى الخبرة الحقيقية ، و انه مهما عاش داخل امريكا فلن يكون بوسعه أن يفهم من الحياة الكثير ، لأن الحياة - بالنسبة له - هناك فى اوربا . و من الطلاب من ترك هارفارد ، لا لمدة عام ، و انما لينتقل الى كلية أخرى ، أو ليترك التعليم كله نظرا لأنه لم يستطع التكيف هناك : و من بين من يكمل دراسته طلاب يتركون هارفارد غير آسفين على شئ ، لأنهم لم ينجحوا إلا بأقل قدر ممكن من التكيف .

لكن هذا لا يعنى بطبيعة الحال أن الطلاب دائما غير متكيفين ، و انما يعنى أن الخبرة الجديدة ، و هى الحياة الجامعية ، تجئ فى فترة حرجة من حياتهم ، ألا و هى فترة المراهقه ، تلك الفترة التى يضع فيها المرء أمام عينيه السؤال الابدى : من أنا ؟ و يجد من البيئة المحيطة ما يساعده على التوصل إلى اجابة صحيحة ، أو يجد ما يدفعه إلى تبنى إجابة خاطئة .

أزمة الهوية :

و سؤال مثل من أنا ؟ و ماذا أعمل ؟ و كيف يكون المستقبل ، و ما حقيقة العالم و حقيقة الآخرين ....، إنما هو تعبير عن محاولة البحث عن الهوية . لذلك يضع مباحث فى هذه الدراسة مفهوم " الهوية " فى مقدمة المفاهيم التى يستخدمها كأدوات ذهنية فى عقبه .

يذكر الباحث أنه فى هذا المجال قدم أدبيات التحليل النفسى نموذج "أزمة الهوية" لتفهم ما يعترى الشخصية من تغير . و الأزمة كما يشرحها أرين أريكسون، استمرار إلما قدمته أنا فريد ، هى فترة من الانقطاع و الاضطراب فى عملية نمو الشخصية ، و تجئ نتيجة لمحاولة المراهق أن يشعر بذاته المستقلة عن والديه و عمن يمثلون السلطة لديه . و فى تلك المحاولة يمكن أن يحدث صراع و تمرد قد يؤدى بالمراهق الى اعمال تثير غضبه و غضب الوالدين ، فيصحب الصراع الخارجى صراع داخلى مشوب بالقلق و التوتر . و النتيجة النهائية إما اعادة التكامل و تواصل عملية نمو الشخصية فى حالة إجتياز المراهق للأزمة ، أو حدوث تشتت للأنا ego إن كان الحل صعبا . لكن

ان لم تحث الازمة فى فترة المراهقة ، فمن الصعب بلوغ النضج الانفعالى فى الفترات العمرية التالية .

لكن ، هل حدوث الأزمة شئ حتمى فى فترة المراهقة ؟ يوجه الباحث انظارنا الى أن نموذج الأزمة مشق من الحالات التى تعانى اضطربات نفسية حادة ، مما يجعلنا نظن أن الأزمة شئ حتمى ، بينما من الممكن أن يحدث التكامل فى النمو ، و أن يكن لصعوبته ، إلا أنه بدون أزمة بالمعنى المفهوم . فمن الممكن إن توفرات الظروف التى تسهل النمو أن يصل الفرد ما بين خبراته القديمة و المواقف الجديدة ، و ان يكامل ما بين ما سبقت به ألفة ، حتى و أن كان مدفونا فى الذكريات البعيدة ، و بين ما لم يألفه بعد . و فى هذه الحالة يمكن الاعتماد على نموذج التكامل فى النمو ، لأن معظم الناس يمكن اعتبارهم "عاديين" لا مرضى أو يعانون اضطرابات نفسية حادة . و كذلك الحال مع الطلاب موضع الدراسة .

الكفاءة و الفاعلية النفسية :

و يحدد كل من مفهوم الأزمة أو التكافل بناء على تحديد مفهومين آخرين . المفهوم الأول هو مفهوم "الكفاءة النفسية"و هو يضيف مدى استجابة و سلاسة عمل الجوانب المتنوعة فى نسق الشخصية . هناك عوامل الدافعية التى تمثل فى : الحاجات ، و الحوافز ، و الأهداف . و الجوانب الموجهة للسلوك التى تتمثل فى : المعتقدات ، و الاتجاهات ، و القيم . و عوامل المهارة فى اداء السلوك و تتمثل فى : القدرات المعرفية ، و الاتساق . ثم عوامل الضبط والنقد و التحليل و تتمثل فى مفهوم الذات ، و الضمير ، و آليات الدفاع و المبادرة . و تصل الكفاءة مداها إن استطاع " الأنا " أن يتوسط تلك العوامل كلها دون ان يكبت طاقة عاطفية زائدة تحت ضغط الشعور بالذنب أو القلق و الصراعات الداخلية ، مما يترك للشخصية قدرا من الحرية لاختيار البدائل فى العامل مع الوسط ، فيكون التكيف سهلا مرنا و تتوظف الطاقة النفسية فى توجهات ابداعية .

أما مفهوم الفاعلية فيضيف درجة قدرة الشخصية على التعامل أو الالتحام بحيوية و نشاط مع البيئة ، فتعدل سلوكها أو تعدل البيئة طبقا لمطالبها و طبيعتها ، و

طبقا لمحددات البيئة فى الوقت ذاته ، فيمكن للفرد أن يغير سلوكه ليحدث التكيف أو أن يغير البيئة لتشبع حاجاته و رغباته دون أن يتسبب فى احداث قدر كبير من الوتر و الصراع فى الوسط الفيزيقى أو الاجتماعى . و نلاحظ هنا ان مفهوم الكفاءة يعتمد على مكونات الشخصية ، بينما الاطار المرجعى لمفهوم الفاعلية خارجى ، مما يعنى أن الحكم علي التكيف لا يكون من منظور واحد ، فقد يكون السلوك كفئا بمعنى انسجام جوانب الشخصية فى الاداء مع أقل قدر من الصراع ، لكنه لا يؤثر فى البيئة ، و قد يكون السلوك فعالا بمعنى احداثه تغييرا فى البيئة ، لكن باكبر قدر من التوتر و الصراع فى الشخصية . لذا يجب الأخذ بالمفهومين معا لملاحظة الدينميات بين العمليات النفسية و الوسط أو القوى المحيطة .

منهج البحث :

يقتصر الكتاب على تقديم خمسة وجوه من هارفارد ، و يحكي الباحث قصة كل طالب بدءا من الطفولة و الصبا و الخلفية الأسرية و مراحل التعليم ، مرورا بالسنوات التى قضاها فى هارفارد و ما فيها من احداث ذات تأثير قوي على تطور شخصيته فى جانب من الجوانب . و يراعى الباحث فى سرده توضيح المغيرات التى وضعها كمحور للدراسة تملى يتضح مغزى التطورات التى تعرضت لها كل شخصية .

تلك الوجوه الخمسة إنما هى نماذج لأنماط الشخصية التى تخرج من هارفارد ، لكن البحث فى الاصل كان يشتمل عينة من ٦٠٠ طالبا ، اختير منهم خمسون لكى تدرس حالتهم دراسة عيادية †Clivicel . و من هؤلاء وقع الاختيار على اولئك الطلاب الخمسة ، و يعنى ذلك أن الحكايات الخمس انما هى ثمرة لجهود بحثه طويلة شاقة على عينة كبيرة من الطلاب ، آثر الباحث ألا يقضى بحثة عند حدود ما تقدمه المعلومات المتجمعة من بطاريات الاختبارات و الاستبيانات لعدد من الطلاب لا يمثلون شيئاً حيا بالنسبة له ، فاستكمل بحثة بجانب فنى آخر ليتعامل مع بشر من لحم و دم ، يحملون مشاعر و افكار ، و يحلمون و يحبطون ، يتبادل معهم الحديث و يطبق عليهم اساليبه العلمية ، لا باعتبارهم مرضى ، و لكن ليضع يده على التطور فى الشخصية الذى لا يمثل انقلابا حادا او انحرافا . و يتلخص الجانب الفنى (التكنيك) فى دراسة

اولئك الطلاب فيما يلى :

١ – فى السنة الدراسية الأولى : مجموعة مقابلات مع كل طالب كان الركيز فيها على النشاطات و الاهتمامات و تقديرات الاساتذة ، و اسجابة الطالب للمقررات الدراسية ، و كيفية تقسيمه لموقفه ، و خصائص ثلة الرفاق ، و مدى شربه لقيم و معايير هارفارد ، وبنسة أسرتة و علاقاته بها وتطور نموه الشخصى ، وذكرياته المبكرة و خبراته الهامة خارج الاسرة . و يطلب منه ان يكتب مقالا ليصف يوما فى " حياة هارفارد " و يطبق عليه اختيار بقع الحبر و التات TAT

٢ – فى السنة الدراسية الثانية و الثالثة : مجموعة مقابلا تركز على علاقات الطالب بوالديه و افراد اسرته ، و استجاباته لبداية السنة الدراسية ، و تطور علاقاته برفاقه ، و كيفية استجابته بالمقررات الدراسية ثم يكتب مقالة عن يوم فى " حياة هارفارد " .

٣ – فى السنة الاخيرة : مقابلتان فقط ، و يطلب من كل طالب تقويم خبراته فى السنة الأخيرة له ، و خطتة المستقبلية للعمل ، و اهدافه من الحياة ، و يطبق عليه مرة أخرى اختبار بقع الحبر و التات و كانت المقابلات تسجل ثم يتم تفريغها .

و يقدم الباحث قصة كل طالب في صورة قطعة ادبية ، لكنها ليست من نسيج الخيال ، و انما من نسج جهود علمية تحاول الكشف عن واقع النفس البشرية و واقع الجامعة . و ربما كانت تلك القصص وسيلة منهجية لتضع بين يدى القارئ فى يسر ما تعجز عنه الارقام و المصطلحات العلمية الصارمة ، فيفيد منها أكبر فائدة ، و يقوم العلم بدوره التنويرى بين الناس .

و لعلنا فى حاجة إلى مثل تلك الدراسات عن جامعاتنا لنعرف لماذا يتفوق المتفوقون من الطلاب رغم ضعف الامكانات بالنظر إلى امكانات هارفارد و غيرها ، و لنعرف كيف نستثير الدافعية لدى الخاملين من الطلاب ليتفوقوا . و الاكثر من هذا أهمية أن نتعرف على بنية المجتمع الطلابى ، و هو مجتمع يضطرب بشتى الانفعالات و الصراعات ، و إن بدا على السطح هادئا . لكن أيا كان القضية التى نبحثها فى التعليم الجامعى فهي محتاجة الى معالجة من منظور فرع علمى أو أكثر ، و محتاجة الى جهد و صبر و جدية في العمل ، إن كنا نؤمن بجدوى البحث العلمى .